مكتبات الفاطميين
"رؤية حضارية"





يسري عبد الغني عبد الله
باحث ومحاضر في الدراسات العربية
والإسلامية والتاريخية
القاهرة – جمهورية مصر العربية
Ayusri_a@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
يسري عبد الغني، مكتبات الفاطميين: رؤية حضارية.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع؛ مارس ٢٠١٠. ص ٦٢ – ٦٥. (www.historicalkan.co.nr)

مكتبات الخلفاء

مما لا شك فيه أن الفاطميين اهتموا اهتمامًا كبيرًا بالحركة العلمية في اتجاهاتها المختلفة، كما اهتموا بخدمة فروع العلم والمعرفة بجانب اهتمامهم بالمذهب الشيعي، ودار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي بالقاهرة، سنة ٣٩٥ هـ، وهو في العشرين من عمره، كانت مركزًا علميًا عالي المستوى، بالإضافة إلى كونها منارة مهمة للثقافة والفكر، جمع فيها خيرة العلماء في جميع الفنون والعلوم، وأغدق عليهم المرتبات الكبيرة، وهيأ لهم الوسائل ليتفرغوا للبحث والدراسة والتأليف.

ألحق الحاكم بدار الحكمة مكتبة عظيمة حوت ما لا مثيل له في المكتبات الأخرى على ذلك العهد، وهيأ للملتحقين بدار الحكمة من طلاب ومطالعين أرزاقًا كافية، ووضع تحت تصرفهم الأوراق والمداد، فورث بذلك ما كان لبيت الحكمة في بغداد عاصمة الخلافة العباسية من نشاط علمي زاخر وزاد عليه.

وفي رأينا الخاص أن الحاكم بأمر الله لما يئس من إصلاح حال الدراسة في الأزهر آنذاك تركه في دراسته المذهبية المتعصبة، وقام بإنشاء دار الحكمة كجامعة ومكتبة من أجل خدمة العلم للعلم بدون تأثير مذهبي أو سياسي.

يذكر لنا ابن الأثير: أن الخليفة الفاطمي الأول/ المهدي (عبد الله أبو محمد الذي نودي به أميرًا للمؤمنين، سنة ٢٩٧ هـ، وكانت وفاته ٣٢٢ هـ) حمل معه وهو ذاهب من سلمية إلى سلجماسة، جميع الكتب والوثائق التي كانت لآبائه، ولكنها سرقت منه وهو في طريقه من مكان يقال له الطاحونة، وهي تقع بالقرب من مدينة طرابلس الليبية، ولكن أبا القاسم بن المهدي (القائم بأمر الله محمد أبو القاسم، توفي ٣٣٤ هـ) استطاع أن يستعيد هذه الوثائق حال مسيره لغزو مصر للمرة الأولى سنة ٣٠٠ هـ.[1]

ونحن نرى أنه من المحتمل جدًا، بل من المتوقع أن هذه الكتب وتلك الوثائق كانت ضمن المتاع الذي أحضره المعز لدين الله (المعز لدين الله الفاطمي محمد أبو تميم، الخليفة الرابع في قائمة الخلفاء الفاطميين، توفي سنة ٣٦٥ هـ) معه من شمالي أفريقيا إلى القاهرة، عندما تم له فتح مصر، فإذا كان هذا صحيحًا فإن هذه الكتب وتلك الوثائق كانت النواة الأولى لمكتبة الفاطميين الكبرى التي قاموا بإنشائها في القاهرة.

نحب أن نقول هنا: إن الفاطميين لم يكونوا عسكريين قنعوا بفتح مصر أو اكتفوا بتسلطهم على أمورها، بل كانوا ينافسون خلفاء بغداد العباسية، ويريدون أن تكون هم الغلبة والسيادة والسيطرة على العالم الإسلامي كله، ومن أجل هذا أنشأوا من المؤسسات ما يضمن لهم علو الصيت وحسن السمعة، وكانت المكتبة التي تنشر العلم وتنفع الناس دعامة من هذه الدعائم.

وقد اتجه الفاطميون اتجاهًا عجيبًا في تكوين مكتبتهم، فقد كانوا يحرصون كل الحرص على أن يجمعوا بها جميع النسخ الموجودة من أفضل الكتب حتى تكون مكتبتهم المكان الوحيد الذي يوجد به هذا الكتاب أو ذاك، فإذا جمعوا مئات النسخ من كتاب معين ثم ظهر لهم أنه لا تزال هناك نسخة منه بعيدة عن مكتبتهم، أظهروا استعدادهم الكامل والتام لأن يدفعوا فيها ثمنًا باهظًا مهما بولغ فيه كي يصلوا بذلك إلى هدفهم ألا وهو الحصول على أي نسخة من نسخ الكتاب، ووضعها في مكتبتهم لتكون موجودة بها دون سائر المكتبات.

وفيما يتعلق بالقرآن الكريم فإنهم كانوا حريصين كل الحرص على أن يجمعوا بمكتبتهم جميع النسخ الفخمة أو التي كتبها مشاهير الخطاطين، وهذا يفسر لنا لماذا كان بمكتبة الفاطميين عشرات أو مئات النسخ من المصاحف المطهرة، أو من كتاب معين، وعلى هذا فإننا نقرأ أن هذه المكتبة كان بها:

- (٢٤٠٠) مصحف في ربعات، بخطوط منسوبة، زائدة الحسن، محلاة بذهب وفضة وغيرهما.[٢]
- (١٣٠٠) نسخة من كتاب (التاريخ) للطبري، منها نسخة بخط المؤلف نفسه.
- (١٠٠) نسخة من معجم (الجمهرة)، لابن دريد.
- نيف وثلاثون نسخة من معجم (العين)، منها نسخة بخط مؤلفه الخليل بن أحمد الفراهيدي.[٣]

أما المجموع العام لكتب المكتبة فيبدو أنه وصل إلى رقم خيالي، يروي المؤرخ / أبو شامه: أنه سمع أن هذه المكتبة كان بها ٢.٠٠٠.٠٠٠ كتاب.[٤] وقد ذكر المقريزي عدة روايات عن مجموع الكتب التي كانت تحتويها خزانة الفاطميين، ولكنه يميل إلى أن العدد كان ١.٦٠٠.٠٠٠ كتاب.[٥] كما يذكر المقريزي أيضًا: أن هذه الكتب كانت في موضوعات متعددة، فمنها الفقه الإسلامي على سائر المذاهب، والنحو واللغة، وكتب الحديث النبوي المطهر، والتواريخ، وسير الملوك، والتنجيم والروحانيات، والكيمياء.[٦]

ويتفق كل من أبو شامه والمقريزي على أن هذه المكتبة كانت من عجائب الدنيا في تلك الآونة، وأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من تلك التي كانت بالقاهرة في القصر (أي مقر الحكم الفاطمي).[٧]

وقد ظلت مكتبة الفاطميين العامرة بالكتب محتفظة برونقها وجلالها حتى اشتعلت الحرب الداخلية في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي الذي تولى الحكم من سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥م إلى سنة ٤٨٧ هـ /١٠٩٤م، وفي هذه الأثناء قام الأتراك الغوغاء بالسلب والنهب في القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية، واعتدوا على دار الخليفة فهدموا ما بها من نماذج الفن الرائع، ثم اقتحموا مكتبة القصر فاعتدوا على هذا التراث الجليل من العلم والمعرفة.

ومن المؤلم حقًا أن تستعمل المخطوطات الثمينة لتشعل لفائف (سجائر) هؤلاء البرابرة غير المتحضرين، وأن يقوم عبيدهم وإماؤهم بأن يتخذوا من جلود الكتب والمخطوطات نعالاً يلبسونها في أرجلهم.

ويؤكد التاريخ على أن الكثير من هذه الكتب ألقي به في نهر النيل، كما تم حرق عدد وافر منها، وحمل بعضها إلى سائر أقطار الدنيا، وبقي منها ما تحول إلى تراب حولته الرياح إلى تلال كانت تعرف بتلال الدراسة بجوار الجامع الأزهر الشريف جنوب القاهرة، وقد حرص هؤلاء البرابرة الأتراك على أن يقضوا على هذه الكتب القيمة التي لا تقدر بثمن لاعتقادهم الواهم أن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذاهبهم.[٨]

ويعلم الله تعالى أنه ما كان لهم علم بكلام المشارقة، ولا بكلام المغاربة، ولا أي لون من ألوان العلوم أو المعارف، وإنما هو الجهل والهمجية دفعا هؤلاء الغوغاء أن يرتكبوا هذه الجريمة النكراء، وأن يطعنوا المدنية العربية الإسلامية في أشرف مقوماتها.

وعندما تسلم الوزير / بدر الجمالي مقاليد مصر جد في أن يجمع من كتب هذه المكتبة ما سلم من الحرق والغرق، فاستعاد ما استطاع أن يستعيد من الأقطار المجاورة، واسترد ما كان منها في حوزة بعض الناس، وبهذا استطاع أن يعيد للمكتبة شيئًا من مكانتها المفقودة.

وقد ظلت هذه المجموعة بالقصر الفاطمي إلى أن سقطت الدولة الفاطمية، وأعلنت الدولة الأيوبية في العاشر من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ /١١٧١م، بقيادة الناصر / صلاح الدين أبو المظفر يوسف الأيوبي، وحينئذ تقدم الناصر / صلاح الدين، البطل الإسلامي العظيم، فقضى قضاءًا مبرمًا على هذه المكتبة القيمة، وأفنى منها ما تعارض مع مذهب أهل السنة، وأهدى جملة كبيرة منها إلى القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني الكاتب والمؤرخ.

ويحكي لنا التاريخ أن صلاح الدين الأيوبي كلف رجل كان يدعى / ابن صورة كان يعمل بتجارة الكتب أن يبيع الباقي، فاستغرق ذلك منه عدة أعوام.[٩] وطالما تكلمنا وكتبنا عن الناصر / صلاح الدين الأيوبي، وذكرنا مآثره وأفضاله ودوره الشجاع في الدفاع عن الإسلام ضد الحملات الصليبية، وكذلك فعل أساتذتنا وشيوخنا الأجلاء، ولكن المنصف لا يستطيع هنا إلا أن يلومه متسائلاً: لماذا وقف صلاح الدين من الكتب هذا الموقف المتشدد الغريب؟ ولماذا لم يتركها للباحثين وللقراء عبر الأجيال ؟!!.

وقبل أن أنهي حديثي عن هذه الجزئية، تحسن الإشارة إلى حقيقة مهمة ألا وهي أن هذا النوع من المكتبات كثيرًا ما تحول إلى مكتبات عامة يدخل إليها كل الناس دون أدنى تمييز للقراءة والإطلاع، وذلك مثلما حصل في مكتبة الناصر لدين الله الخليفة العباسي، وفي مكتبة الفاطميين الذي نقل جزء كبير منها إلى المكتبة الملحقة بدار الحكمة أو دار العلم الذي أسسها الخليفة الفاطمي / الحاكم بأمر الله في القاهرة لتكون بمثابة منارة ثقافية لكل محبي المعرفة والعلم والثقافة.

مكتبة "دار الحكمة"

في يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ افتتحت دار الحكمة بالقاهرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي. وقد كانت الاستعدادات تتخذ قبل ذلك بحزم ونشاط، تمهيداً لافتتاح المعهد العظيم، الذي أريد به أن يمحو من الأذهان ما علق بها عن مجد بيت الحكمة، الذي أنشأه هارون الرشيد الخليفة العباسي في بغداد، وسما به إلى ذروة المجد ابنه المأمون العباسي.

ويحكي المقريزي في خططه: إن الاستعدادات شملت إعداد البناء، وتنظيمه، ثم فرشت هذه الدار (دار الحكمة)، وزخرفت، وعلقت على جميع أبوابها، وممراتها الستور (الستائر). ثم حملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة (قصور الفاطميين)، وحصل فيها من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك. وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الأقلام والورق والمحابر، وأقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم، رسموا بخدمتها (أي عينوا وكلفوا بخدمة دار الحكمة)، وجلس فيها القراء، والفقهاء، والمنجمون (علماء الفلك)، والنحاه، وأصحاب اللغة، والأطباء. وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الأرزاق السنية، وأبيح دخولها لسائر الناس (أي أن القراءة والثقافة والعلم للجميع) فوفدوا إليها على اختلاف طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم.[١٠]

ويقول جورجي زيدان: وإلى جانب هذا فقد أباح (الحاكم بأمر الله الفاطمي) المناظرة بين المترددين إلى (على) دار الحكمة، فكانوا يعقدون الاجتماعات هناك، وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدال إلى الخصام.[١١]

ونعتقد أن (الحاكم) أباح النقاش، والحوار، والتعبير عن الرأي والرأي الآخر، وإعلان وجهات النظر المختلفة، وكان ذلك كله يتم في مكان بعيد مستقل عن قاعة المطالعة والقراءة بدار الحكمة، والتي يجب أن يتوافر فيها الهدوء التام والكامل للقراء والباحثين والمطالعين، ولا نعتقد أن الحوار في المكتبة كان يؤدي إلى اللجاج والخصام، كما يذهب جورجي زيدان، فأهل العلم والفكر أسمى من أن يقعوا في الخصام أو اللجاج عندما يتحاورون، فالخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، وما أجمل أن يكون الحوار بالتي هي أحسن، كما علمنا الإسلام الحنيف، وهدف أي حوار هو الوصول إلى الحقيقة التي هي لب البحث العلمي، والحوار الفكري.

ويقول لنا التاريخ: لقد ظلت دار الحكمة مفتوحة الأبواب حتى أوائل القرن السادس الهجري، ثم اكتشف الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، الذي كان وزيراً للمستنصر الفاطمي بعد موت والده، واستمر في الوزارة بعد موت المستنصر، وبقي بعد موت المستعلي الفاطمي حتى اغتيل سنة ٥١٥ هـ اكتشف الوزير الأفضل أن جماعة من الناس يستفيدون من دار الحكمة، ويستفسدون عقول الناس، فيأوون إليها، ويتخذون منها مكاناً للدعاية لمذاهبهم الهدامة، وأفكارهم المتطرفة غير الوسطية، فأمر بإغلاق دار الحكمة في الحال. ثم تم اعتقال زعيم هذه الجماعة، الذي كان يتخذ من دار الحكمة مكاناً لنشر أفكاره الهدامة، وكان يدعى (بركات)، ولكن هذا المتمرد اختفى في الحال، ولم يستطع الوزير الأفضل أن يقبض عليه.

ولما توفى الأفضل أمر الخليفة الآمر بن المستعلي ٤٩٥ - ٥٢٤ هـ، وزيره مأمون البطائحي، الذي قتل مصلوباً في سنة ٥١٩ هـ، برعاية دار الحكمة وفتحها على الأوضاع الشرعية.[١٢] وفي رأينا أن إغلاق أي مؤسسة علمية لا يحل مشكلة الآراء أو الأفكار المتطرفة، ولكن يجب مواجهة الفكر بالفكر، والحوار بالحوار، فالإسلام دين الفكر المعتدل الوسطي، دين العقل المفتوح المستنير. هذا، وقد ظلت دار الحكمة تؤدي عملها حتى تمكن الأمر لصلاح الدين الأيوبي في مصر، عندما ضعف أمر العاضد بن يوسف الحافظ (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ) آخر الخلفاء الفاطميين، فهدم صلاح الدين دار الحكمة الفاطمية، وبنى مكانها مدرسة للشافعية.[١٣]

نعم، أنشأ صلاح الدين الأيوبي العديد من المدارس والمساجد والزوايا في مصر والشام، ولكن هدمه لدار الحكمة أمر غير مقبول، كان في إمكانه أن يعيدها إلى دورها في نشر الفكر الإسلامي المستنير المعتدل، إلى دورها كمؤسسة علمية / تعليمية / ثقافية / تربوية، يؤمها جميع محبي الفكر والعلم والثقافة، أما أن يهدمها، فهذا غير مقبول، فالإسلام دين التعددية، والحوار، وقبول الآخر ـ ألا يوافقني القارئ الكريم على ذلك ؟.

إن إنشاء الحاكم بأمر الله الفاطمي، منصور أبو علي، المفقود سنة ٤١١ هـ، بجبل المقطم، جنوب مصر، لدار الحكمة كمؤسسة ثقافية سنة ٣٩٥ هـ، يضعه بحق في القمة من المفكرين المثقفين، حيث قام بإنشاء هذه الدار، وهو في العشرين من عمره، وكانت تعد بحق مركزاً علمياً ثقافياً عالي المستوى، جمع له الحاكم خيرة العلماء في سائر العلوم والفنون والآداب، وأجرى عليهم المرتبات الكبيرة، وهيأ لهم جميع الوسائل من أجل أن يتفرغوا تماماً للبحث والدراسة والتأليف.

وعليه نجده قد ألحق بدار الحكمة مكتبة عظيمة فخمة ضخمة حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة أخرى في ذلك العهد، كما هيأ الحاكم بأمر الله الفاطمي للملتحقين بدار الحكمة من طلاب ومطالعين ودارسين وباحثين أرزاقاً كافية، ووضع تحت تصرفهم الأوراق والمداد، فورثت دار الحكمة في القاهرة، بذلك ما كان لبيت الحكمة في بغداد العباسية (والتي أسسها هارون الرشيد، ووضعها في الذروة من المجد العلمي والثقافي ابنه المأمون العباسي)، من نشاط علمي زاخر، وزاد عليه الكثير والكثير.

ويمكن لنا القول أن الحاكم بأمر الله الفاطمي لما يأس كل اليأس من إصلاح أحوال الدراسة في الأزهر الشريف آنذاك تركه في دراسته المذهبية المتعصبة، وأنشأ دار الحكمة من أجل أن تخدم العلم والفكر والثقافة بدون أي تأثير مذهبي أو سياسي. إن هذا الرجل - الحاكم بأمر الله الفاطمي - في حاجة إلى دراسة واعية تنصفه حق الإنصاف، وتبرز بجلاء دوره الثقافي والحضاري الذي قام به من أجل خدمة فكرنا الإسلامي الوسطي المعتدل، رغم كل ما قيل عنه، ورغم الحديث الطويل الذي تحدثه أهل التاريخ عنه، وقولهم بجنونه وشذوذ تصرفاته. لذلك فقد آن الأوان لأن نعيد دراسة هذا الرجل دراسة علمية منهجية جادة متجردة، ونقول هنا: علينا أن نقوم بذلك، دون أن يقول قائل: إننا من أهل السنة، فما شأننا بهذا الرجل ؟

الواقع أن الإسلام لا يعرف المذهبية أو التعصب أو الطائفية أو العرقية، فقد نختلف مع بعض أفكار الفواطم الشيعية، ولكن هذا لا يمنع الباحث المنصف من أن يعطي كل شخصية تاريخية في تاريخنا الإسلامي حقها من الإنصاف نظير ما قدمته من إنجازات ثقافية وحضارية أفادت فكرنا الإسلامي.

الهوامش:

١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة ليدن الهولندية، ١٨٥١م، ٨ / ٢٩، مع تصرف وإضافة وتوثيق من جانبنا.

٢. الربعات جمع ربعة، وهي صندوق فيه أجزاء المصحف الشريف، وفي الأغلب أنها كلمة مولدة.

٣. نراجع: المقريزي، الخطط، القاهرة، ١١٧٠ هـ، ١ / ٤٠٨، وكذلك: أبو شامه، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة، ١٢٨٧ هـ، ١ / ٢٠٠، حيث ذكر أبو شامه أن خزانة كتب الفاطميين حوت ١٢٢٠ نسخة كاملة من تاريخ الطبري.

٤. أبو شامه، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة، ١٢٨٧ هـ، ١ / ٢٠٠.

٥. المقريزي، الخطط، القاهرة، ١١٧٠ هـ، ١ / ٤٠٩، باختصار من عندنا.

٦. المقريزي، الخطط، القاهرة، ١١٧٠ هـ، نفس الصفحة ونفس الجزء المشار له في الهامش السابق.

٧. نراجع: أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة ١٢٨٧ هـ، ١ / ٢٠٠ وما بعدها، وكذلك: المقريزي، الخطط، القاهرة، ١١٧٠ هـ، ١ / ٤٠٩.

٨. المقريزي، الخطط، القاهرة، ١١٧٠ هـ، ١ / ٤٩، بتصرف من عندنا. وكذلك: ستانلي لان بول، تاريخ مصر في العصور الوسطى، لندن، ١٩٠١م، ص ١٤٩.

٩. أبو شامه، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة ١٢٨٧هـ، ١ / ٢٦٧. وكذلك: المقريزي، الخطط، القاهرة، ١١٧٠ هـ، ١ / ٤٠٩. وأيضًا: أحمد شلبي، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٩٧ وما بعدها، بتصرف من عندنا.

١٠. المقريزي، الخطط، القاهرة، ١١٧٠ هـ، ١ / ٤٥٨. ٤٥٩، ٢ / ٣٤٢، بتصرف من عندنا.

١١. جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة، ١٩٠٣م، ٣ / ٢١٠، بتصرف.

١٢. المقريزي، الخطط، القاهرة، ١١٧٠ هـ. ١ / ٤٥٩، بتصرف من عندنا.

١٣. ابن خلدون، العبر، القاهرة، ١٢٨٤ هـ، ٤ / ٧٩، بتصرف من عندنا.

من مؤلفات الأستاذ يسري عبد الغني عبد الله:

أكثر من ٢٨ كتاباً منشوراً مابين مؤلف ومحقق ومعد، منها :

- الإسلام والتنمية الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥.
- المدنية العربية الإسلامية، نظرات في الأصول والتطور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.
- مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١.
- معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الخامس عشر الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١.
- معجم المعاجم العربية، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠.